شرح

كتاب الاعتصام

من صحيح البخاري

الشرح

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن هادي المدخلي

عضو هيئة التدريس في كلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

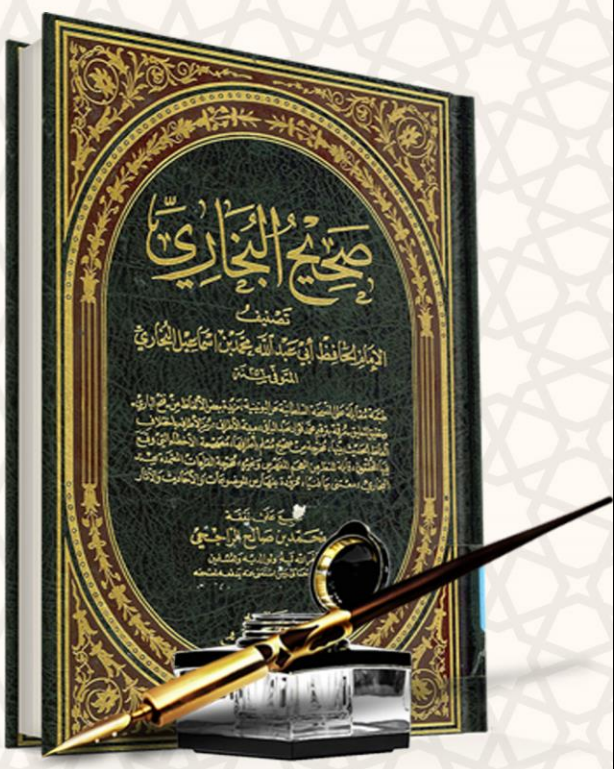

miraath.net

ميراث الأنبياء

قام بها فريق التفريغ بموقع ميراث الأنبياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسر موقع ميراث الأنبياء أن يقدم لكم تسجيلًا لدرسٍ في

شرح كتاب الاعتصام
من
صحيح الإمام البخاري

-رحمه الله تعالى-

ألقاه

فضيلة الشيخ الدكتور: محمد بن هادي المدخلي

-حفظه الله تعالى-

بجامع ابن هيجان بمحافظة الشقيق بجازان في شهر شوال عام ثمانية وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة النبوية،

نسأل اللّه -سبحانه وتعالى- أن ينفع به الجميع.

الدرس الخامس

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

المتن:

قال الإمام البخاري -رحمه الله تعالى وغفر الله له ولشيخنا وللحاضرين ولجميع المسلمين والمسلمات- في كتاب الاعتصام والسنة:

بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ».

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تبعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذا الحديث -كما سمعتم- هو آخر حديث في باب بعثته -صلى الله عليه وسلم- بجوامع الكلم، ويقول فيه الإمام البخاري -رحمه الله-: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال حدثنا الليث أنه قال عن سعيد أنه قال عن أبيه أنه قال عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تبعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

هذا الحديث كما تعودنا:

أولًا: هو متفقٌ عليه، فقد خرجه الإمام مسلم في صحيحه.

ثانيًا: هو عند النسائي من بقية الستة ونحنُ تعمدنا دائمًا أن نذكر إذا كان الحديث متفقًا عليه أن نذكر ذلك؛ لأن هذا له شأنه، فالبخاري صحيح لا كلام ولكن كونه يكون في مسلم أيضًا يكون في أعلى درجات الصحة على الإطلاق، فكونه عند مسلم هذه درجة أخرى وهي درجة المتفق عليه، فإذا وجد عند مسلم فنحنُ لا نغفله فهو عند مسلم -رحمه الله- ومن الستة بعد الشيخين أخرجه النسائي، يعني من الأربعة لم يخرجه إلا النسائي.

ثالثا: هو من المكررات والأحاديث المكررة عند البخاري سبق كلامنا عليها، وذكرنا بعضًا من الفوائد التي نجنيها نحن من التكرار في الحديث عند الإمام البخاري، فقد خرجه الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في كتاب فضائل القرآن، وخرجه هنا في كتاب الاعتصام ومناسبته للاعتصام سيأتي الكلام عليها، وأما مناسبة ذكره في فضائل القرآن فهذا واضح، وذلك من قوله -صلى الله عليه وسلم-: «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا» والمرادُ به القرآن والسنة، فجاء به هناك لتعلقه بالقرآن فهو الوحي المتلو، وجاء به هنا لتعلقه بالسنة فهي الوحي الثاني مثل القرآن.

فَسُنَّةُ النَّبِيِّ وَحْيٌ ثَانِ ۞۞۞ عَلَيْهِمَا قَدْ أُطْلِقَ الوَحْيَانِ
وَإِنَّمَا طَرِيقُهَا الرِّوَايَهْ ۞۞۞ فَافْتَقَرَ الرَّاوِي إِلَى الدِّرَايَهْ
لِصِحَّةِ المَرْوِيِّ عَنْ الرَّسُولِ ۞۞۞ لِيُعْلَمَ المَرْدُودُ مِنْ مَقْبُولِ
لَا سِيَّمَا عِنْدَ تَظَاهُرِ الفِتَنِ ۞۞۞ وَلَبْسِ إِفْكِ المُحْدَثِينَ بِالسُّنَنِ

فهذا الوحي الثاني الذي هو السنة النبوية التي من اعتصم بها نجا ويواجه بها المحدثين والملحدين في دين الله يحتاج إلام؟ إلى نقد ونظر فيثبت الصحيح ويبنى عليه وينفى غير الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولذلك جهد الناس فيها بما لم يجهدوه في القرآن حتى جاءتنا صافية نقية، فقام عند ذلك الأئِمة بنصرة الدين ونصح الأمة.

فَقَامَ عِنْدَ ذَلِكَ الأَئِمَّةْ ۞۞۞ بِخِدْمَةِ الدِّينِ وَنُصْحِ الأُمَّةْ
وَخَلَّصُوا صَحِيحَهَا مِنْ مُفْتَرَى ۞۞۞ حَتَّى صَفَتْ نَقِيَّةً كَمَا تَرَى
ثُمَّ إِلَيْهَا قَرَّبُوا الوُصُولَا ۞۞۞ لِغَيْرِهِمْ فَأَصَّلُوا أُصُولَا
وَلَقَّبُوا ذَاكَ بِعِلْمِ المُصْطَلَحْ ۞۞۞

فقواعد المصطلح منها يعرف الصحيح من المروي عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- من الضعيف، وصحيح البخاري ومسلم يتربعانِ على القمة في هذا الباب، فجاء به هنا لمناسبة السنة والاعتصام بها، فهي وحيٌ من الله -جلَّ وعلا- كالقرآن، شاهده في سورة النجم فاحفظهُ ولا تهم، وبذلك يظهر مكانة الاعتصام بالسنة وأهمية الاعتصام بالسنة، وقد عقد لذلك بابًا بعده -رحمه الله- فسماه باب الاقتضاء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وهذا الحديث -حفظكم الله- ساقه البخاري عن سعيد المقبري عن أبيه أبي سعيد المقبري فهو سعيد بن أبي سعيد، وأبو سعيد المقبري الأب هو كيسان، فنختصر ونقول سعيد بن كيسان المقبري، وإن قلت سعيد بن أبي سعيد فهذا هو المشهور والذي يمشي عليه أكثر الناس، يقولون سعيد بن أبي سعيد، وإن قلت سعيد المقبري فهو هو، أما أبوه فهو أبو سعيد المقبري، ففرقٌ بين هذا وبين هذا وقد سمع سعيد المقبري -رحمه الله - من أبي هريرة كثيرًا، وسمع من أبيه عن أبي هريرة

يعني يروي أحاديث سمعها هو عن أبي هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-ويروي أحاديث عن أبيه عن أبي هريرة لم يسمعها هو من أبي هريرة، فكان بينه وبين أبي هريرة -رضي الله عنه- واسطة، فالذي سمعه هو عن أبي هريرة يسمى عاليًا؛ لأنه ليس بينه وبين نبينا -صلى الله عليه وسلم- إلا رجل واحد وهو الصحابي، وسعيد تابعي وإذا روى عن أبيه عن أبي هريرة نزل درجة صار بينه وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- واسطتين، فهذا هو النازل والأول هو العالي، وبما أنه -رحمه الله- قد سمع من أبي هريرة كثيرًا وسمع من أبيه أكثر إلا أنه -رحمة الله عليه- كان دقيقًا ويميز بين ما رواه عن أبي هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مباشرةً، ويميز بين ما رواه عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- فبذلك كان شديد التحري والضبط -رحمه الله-.

والوجهان هذان يعني: النزول، والعلو، هنا الرواية عندنا نازلة؛ لأن سعيدًا يروي عن أبيه أبي سعيد كيسان، وأبو سعيد يروي عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الوجه الآخر: سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذان الوجهان جميعًا النازل والعالي كلاهما واقع في الصحيحين الصورتان النزول والعلو، إن روى عن أبي هريرة مباشرةً فهذا في الصحيحين هذا الوجه، وإن روى عن أبيه عن أبي هريرة وهو النزول فهذا أيضًا موجود في الصحيحين، فعلى كل حال، هذا دالٌّ على ضبطه -رحمه الله تعالى-.

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ» هذا دالٌّ على أنه لابد لكل نبي من آية يتحدى بها قومه ولاسيما المعاندين والمكذبين، لابد للنبي من آية ومعجزة

تقتضي إيمان من شاهده وتقضي بإيمانه بصدقه، يؤمن لأنه قد آمن بأن هذا النبي صادقٌ لما يراه من الصدق فلابد للأنبياء من هذه الآيات وهذه المعجزات التي تقتضي إيمان من شاهدهم وتقضي أيضًا عندهم بصدقه، وإذا حصل ذلك لا يضر وجود المعاند أو المعارض، فإن الله -سبحانه وتعالى- قد أخبرنا عن وجود هذا الصنف من الناس، ومعنى هذا القول منه -عليه الصلاة والسلام- أن كل نبي من الأنبياء قبله أُعطي آيةً أو أكثر من آية من شأن من شاهدها وحضرها ورأى ذلك النبي أن يؤمن به لأجلها هذا هو المعنى، ويجد غلبة في نفسه لا يستطيع دفعها توجب عليه أن يصدِّق هذا النبي، فإن أعرض بعد ذلك أو جحد أو عاند أو أصر واستكبر فهذا لا يضر كما قال -جل وعلا- عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، جحدوا بها في الظاهر تكذيبًا وعنادًا لكن أنفسهم قد آمنت بها واستيقنت، لماذا؟ هذا هو الإيمان بالغلبة الذي ذكره أهل العلم، حيث إن من رأى هذا يغلبه التصديق لهذا النبي، فيدخل إلى قلبه وإن حاول ستره وإن حاول معارضته وإن حاول الاعتراض عليه والطعن فيه، كل ذلك لا يجدي نفعًا؛ لأنه سيفضحه الله على فلتات لسانه، وما قصة استماع المشركين لقراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- للقرآن إلا من هذه الأدلة التي تدل لكلام أهل العلم من أنه يكون مغلوبًا؛ لأن المؤمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- قسمين:

- قسم يؤمن ويؤثر الإيمان فيه فيُطيع هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ويتبعه، فهذا الإيمان القلبي الذي غلبه على قلبه ودخل فيه أثَّر على جوارحه فصدَّق بهذا النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أما القسم الآخر: فيؤمن مغلوبًا، ما معنى يؤمن مغلوبًا؟ يعني يوقن بأن هذا النبي سيظهر الذي أرسله الله إليه، وإن كان يحاول في الظاهر ألا يصدقه ويورد الاعتراضات على دعوته ورسالته ويحاول تنفير الناس عنه، كما فعلت قريش مع نبينا -صلى الله عليه وسلم-، فهذا هو الإيمان الغالب الذي يغلب الإنسان ويعلم أنه لابد من ظهور هذا النبي.

كما جاء ذلك أيضًا في حديث أبي سفيان بن حرب -رضي الله عنه- مع هرقل وذلك حينما سأله عنه، فعاد وهو يقول: "لقد ظهر أمر" وفي لفظ: «لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ» وأراد أن ينال من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهذه الكلمة، ولكن ما استطاع أن يجحد هذا؛ لأن رجلًا بعيدًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر بأنه سيظهر وهو هرقل، فكيف بك أنت وأنت ابن عمه قريب منه تعرف حسبه ونسبه وصدقه وأمانته وتشهد له بذلك ثم بعد ذلك لا تؤمن به! فهذا الإيمان هو الذي يغلب على الإنسان ويدخل قلب الإنسان بقوة، وقد حصل مثل هذا بالقرآن الذي هو باب حديثنا الآن؛ الاعتصام بالكتاب والسنة، وذلك كما جاء في حديث جبير بن مطعم -رضي الله عنه- حينما سمع قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- لسورة "النجم" فكاد يطير قلبه، قال: «وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي» دخله بالقوة بالغلبة "الطور" -وهو يقرأ "بالطور"، هكذا يجب أن تكونوا أن تردوا على من أخطأ، وإنكم لتُشكرون على ذلك، وهذا مما يثلج صدري- سورة "الطور" فهذا أول ما سمع طار لبُّه، وهكذا قريش كلها، كلما سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- قراءته وجدوا ذلك في قلوبهم لا يستطيعون دفعه.

وقوله -عليه الصلاة والسلام- بعد أن ذكر هذا عن جميع الأنبياء في ذكر الآيات التي أوجبت إيمان قومهم بهم، فمن كتب الله له الهداية آمن الإيمان المثمر للانقياد والاتباع، ومن لا قامت عليه حُجة الله -جل وعلا-، ذكر -رحمه الله- قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ» يريد أن هذه الآيات التي حصلت للأنبياء السابقين آمن عليها البشر، ولكن لم تكن كالآية والمعجزة التي آتاه الله إياها، وإن كان بعضهم قد شارك هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- في نزول الكتاب عليه كصحف إبراهيم وموسى، وكالتوراة على موسى، وكالإنجيل على عيسى -عليهم الصلاة والسلام- لكن الآيات التي تحدَّوا بها ليست وحيًا، فقد كانت آية صالح الناقة، وآية موسى العصا، وآية عيسى -صلى الله عليهم جميعًا وسلم- إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وسيأتي الكلام -إن شاء الله تعالى عليها-، فالشاهد أنه كانت هذه الآيات لهؤلاء الأنبياء أظهر الآيات وإلا قد أوتوا آيات غيرها لكن أظهر الآيات هي هذه الآيات وذلك لمناسبتها لحال من بعث إليهم، فهذا هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في مقابله «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا» وذلك لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، هذا الوحي الذي تحداهم الله به على أن يأتوا بمثله وسيأتينا، وبعشر سور من مثله وبسورة من مثله فعجزوا وهم أرباب الفصاحة وأسياد البلاغة، سادة البلاغة والفصاحة عجزوا عن ذلك فكان آية لهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلا ليس المراد حصر معجزاته -صلى الله عليه وسلم- وآياته في القرآن فقط وأنه لم يؤت من المعجزات إلا هذا لا، إنما أوتي معجزات أخرى وآيات أخر، لكن هذه أظهر معجزة له، كما أن موسى أوتي معجزات عدة لكن أظهر معجزة له العصا، وهكذا عيسى أوتي معجزات عدة

ولكن أظهر ما أوتي هذا الذي ذكرنا، وذلك لأن المراد من الآيات والمعجزات التي اختص الله -سبحانه وتعالى- بها أنبياءه المراد بها التحدي لمن بعث إليهم وبيان صدقهم في رسالتهم، فكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحاله، معجزة كل نبي تقع مناسبة لحاله، فموسى -صلى الله عليه وسلم- المناسب لحاله العصا وإن كانت له آيات ومعجزات غيرها ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ الإسراء: ١٠١، لكن أظهرها العصا، وذلك لأن السحر كان منتشرًا في قوم فرعون وبلغوا فيه الذروة، فلما كان كذلك جاء موسى -عليه الصلاة والسلام- بالعصا على صورة ما يصنعه السحرة لكنها ليست سحرًا بل هي حقيقة تحداهم بها ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ طه ١٧ - ٢١

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ طه ٦٧ - ٦٩

وكما قال: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الشعراء: ٤٥ - ٤٦

فهذه من جنس ما هو في عصرهم جاءت مناسبة لذلك ليكمل بها التحدي، ويثبت بها صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- الجائي بها، ويظهر صدقه بخصوصٍ عند من يعرف هذا النوع؛ ولذلك كان قوم موسى في ذلك الحين شاهدين في العصر جميعًا في يوم الزينة، لكن أول من آمن هم السحرة لعلمهم الكامل بالسحر فعرفوا بأن هذا ليس بسحر فكان التحدي عند هؤلاء أظهر ما يكون، وإذا كان عند الرءوس أظهر ما يكون فيظهر بذلك أن من كان دونهم لا يكون عدم إيمانه إلا

عنادًا؛ فلذلك قال الله فيهم: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل: ١٤، فهذه آية موسى -عليه الصلاة والسلام-، هكذا عيسى -صلى الله عليه وسلم- آيته إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله -تبارك وتعالى-، له آيات أخرى منها أنه تكلم وهو في المهد، ومنها أنه يخلق من هيئة الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو إحياء لهذا الصنف من الموات إلى غير ذلك من الآيات، لكنه -صلى الله عليه وسلم- لما كان في عصر بلغ فيه أمر الطب الذروة جاءهم بما يناسب حالهم فتحداهم من جنس ما هم فيه بمعجزة من جنس ما هم فيه، كان الطب في زمانه والحكماء الذين هم الأطباء قد بلغوا درجة في هذا الباب في باب الطبابة ما بلغها أحد، فأراد أن يبين لهم أن طبهم هذا مع ما وصلوا فيه إليه قاصر، فتحداهم -صلوات الله وسلامه عليه- بهذا فأتاهم بما هو من جنس عملهم مما لا تصل إليه ولا تستطيع أن تصل إليه قدرتهم، فلما رأوا ذلك آمن من آمن به ممن عرف هذا الفن؛ فن الطبابة، فعرف أن هذا ليس من باب الطب البشري، وإنما هو فوق قدرة البشر، إذًا فهذا النبي الذي جاء به صادق، فتحداهم بهذه المعجزة مع أن له معجزات أخر منها المعجزة التي جاءت في المائدة: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ المائدة: ١١٢، إلى آخر الآيات، هذه مائدة جاءت كاملة فيها ما تشتهيه أنفسهم ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ المائدة: ١١٣ - ١١٤، هذه آية أخرى لكن الآية العامة هي التي تحداهم بها هذه.

هكذا نبينا -عليه الصلاة والسلام- له آيات كثيرة ومعجزات كثيرة دالة على صدقه، وهو الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- لكن آيته المعجزة هي القرآن الكريم هذا الوحي الذي أوحي إليه الذي أوتيه -صلى الله عليه وسلم-، وذلك لما كان في قومه وهم العرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم -عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- ومن غيرهم من قحطان الذين وفدوا إلى مكة وأقاموا بها، وصاهرهم إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- واجتمع من اجتمع به من العرب القحطانية والعرب العدنانية الذين انتشروا من عدنان بن إسماعيل -صلوات الله وسلامه عليه- وشاعت فيهم الفصاحة، وبلغ أهلها الذروة، وأفصح الألسن لسان قريش، فلما كانوا في هذه الرتبة من الفصاحة والبلاغة والبيان بعث الله إليهم هذا النبي وهم في هذه الرتبة في غاية الفصاحة والبلاغة، فجاءهم بهذا القرآن الذي قال: «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ» فجاءهم به وتحداهم به أن يأتوا بمثله وأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات إن استطاعوا، وأن يأتوا بسورة من مثله سورة واحدة، فلما لم يقدروا على ذلك عرفوا أن هذا الكلام ليس بكلام البشر؛ لأن لو كان من كلام البشر هم سادات الفصاحة والبلاغة لاستطاعوا أن ينظموا مثله، ولهذا يقول شيخ شيوخنا -رحمه الله-:

كَمْ قَدْ تحدّى قريشًا في القديم وهُمْ ❁❁❁ أهلُ البلاغةِ بينَ الخَلْقِ كُلِّهِمِ
بمثلِهِ وبعَشْرٍ ثمّ واحدةٍ ❁❁❁ فلَمْ يَرُومُوهُ إذْ ذا الأمرُ لمْ يُرَمِ
الجنّ والإنسُ لم يأتوا لوِ اجْتمعوا ❁❁❁ بمثلِهِ ولوِ انضَمّوا لِمثْلِهِمِ
أنّى وكيْفَ وربّ العَرْشِ قائِلُهُ ❁❁❁ سبْحانَهُ جلّ عنْ شِبْهٍ له وسَمِي

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ العنكبوت:٤٩، هذا كلام الله -جل وعلا-.

لما عارضهم مسيلمة جاءهم بالسخف، "الفيل وما الفيل له ذيل قصير وخرطوم طويل" هذا عليه نور الوحي ؟! قال له صاحبه: "والله يا مسيلمة إنك تعلم أني أعلم أنك كاذب، ولكن كذاب بني حنيفة أحب إلي من صادق مضر" يعني حمية أو يقسم ويقول له: "والله يا مسيلمة إنك لتعلم أني أعلم أنك كاذب وأن محمدًا لصادق ولكن كذاب بني حنيفة أحب إلي من صادق مضر" نعم فالحمية قد تأتي، وهذا قد حصل لكثير منهم من هو في أول الإسلام، أو في أول ما قذف الإسلام في قلبه ولم يسلم بعد وبعد ذلك، ولكن الله -جل وعلا- يهذبه في قلوب أهل الإيمان، فمن هؤلاء عكرمة لما حضر مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان قد بدأ دخول الإيمان في قلبه ولم يؤمن بعد، لا، صفوان، صفوان بن أمية فلما حضر وكان معه أخوه كندة بن الحنبل، حضروا يوم حنين، حضروا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما كانت الحرب في أولها وصار على المسلمين ما صار، قال: الآن بطل سحر محمد، قال: اسكت فض الله فاك، والله لأن يربني رجلٌ من قريش خير أن يربني رجلٌ من هوازن، قد تأتي الحمية، الشاهد أنه يقول له: "أنت كاذب وتعرف أني أعرف أنك كاذب، كذاب بني حنيفة أحب إلي من صادق مضر".

فالمراد أن معجزات الأنبياء كل واحد تحدى قومه بالذي يصلح لحالهم، وإن كان قد أوتي معجزات أخر وآيات أخر، لكن الله -جل وعلا- يذكر أظهر المعجزات التي وقع بها التحدي واستمر بها التحدي، والتحدي من هؤلاء الأنبياء لأقوامهم استمر بهذه الآيات التي ذكرها الله -جل وعلا- ونص عليها لعظمها، ومع ذلك هؤلاء الأنبياء معجزاتهم انقرضت بانقراض

أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، فإذا مات جاء الذي بعده لم يشاهدها لم يكن في الإيمان مثل الذي شاهدها، بخلاف معجزة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وآيته التي جاء بها العظيمة وهي القرآن الكريم، فهي مستمرة إلى يوم القيامة، وذلك بخرقه للعادة في أسلوبه، في نظمه في بلاغته، في فصاحته، في إخباره عن المغيبات السابقة أو المستقبلة ولم يخبر عن شيء إلا وقع كما أخبر -سبحانه وتعالى- فهذا دليل واضح على صحة دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه نبي من عند الله -جل وعلا- حقًّا، وهكذا كون المعجزات الماضية والآيات الماضية مع الأنبياء الماضين كانت حسية تشاهد بعين العصر، فتأثيرها منحصر فقط فيمن شاهدها، فإذا مات لم يكن من شاهدها كمثل من لم يشاهدها، فمشاهدتهم لها بالعين الحسية؛ لأنها هي حسية؛ ناقة، عصا، إبراء الأكمه، إحياء موتى، إبراء الأبرص هذا تراه العيون، فيكون الإيمان في حق من شاهد فمن لم يشاهد لا يكون كمن شاهد، هذا واحد.

الثاني: أنها إذا انقرضت لم يحصل بها ما يحصل بالقرآن، فهي لها وقت وانتهت معه بينما القرآن معجزة قلبية فهي محسوسة، مشاهدة بنور البصيرة وهي باقية مستمرة إلى يوم القيامة فيشاهد بعين البصيرة، فلما كان معجزة مشاهدة بعين البصيرة كانت مستمرة، وناسبت أن تكون مستمرة وناسب أن يكون الدِّين الذي جاء بها هو خاتم الأديان، وإذا كان كذلك فالناس ينظرون إليها في كل زمان ويقرءُونها ويجدون ما فيها من الآيات، ويرون ما فيها من أنواع التحدي ويرون ما فيها من أنواع الإعجاز فكل يوم ينكشف لهم شيء من هذا الإعجاز في هذا الكتاب، فالذي يراه الرجل بالأمس ينتهي معه ويأتي آخر فيذكر ما كان بالأمس ويزيد عليه اليوم، وهكذا الذي بعده وهكذا

الذي بعده فهو مؤثر في جميع من نظر فيه، فكان هذا سبب كثرة الأتباع لهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ولأجل ذلك قال: «فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تبعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لأن الذي جاء به لم يكن مشاهدًا فقط بعين الرأس، ينقرض بانقراض زمانه وانقراض مكانه وانقراض مشاهده وإنما هو مستمر؛ لأن الذي يشاهده إنما يشاهده بعين البصيرة والعقل، وما كان بعين البصيرة والعقل مشاهد فهو باقٍ، وإذا كان كذلك فإن هذا يعني الاستمرار إلى يوم القيامة، فحينئذ يكون كل من شاهده أثر فيه بالإيمان، إما بالإيمان الذي ينجيه عند الله -جل وعلا- وإما بالإيمان الذي يغلبه يدخل عليه في قلبه بالغلبة والقوة وإن جحد وإن كذب كحال كثير من رءوس البلاد الكافرة الآن في مكتشفاتهم العلمية حينما يُذكر لهم أن القرآن قد ذكر شيئًا من هذا يبهتون أمام ذلك، فمن كتب الله له الهداية وشاهد ذلك وقرأ القرآن هداه الله -جل وعلا- فانتفع، ومن لم يكتب الله له الهداية قامت عليه حجة الله -تبارك وتعالى-، ولذلك قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تبعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وهذا الكلام قوله: «فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تبعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» مرتب على الذي تقدم على الآية التي هي الوحي بسبب استمراريتها، فكل يوم يؤمن به أقوام فيزداد أتباعه -صلى الله عليه وسلم- وذلك لكثرة فائدة هذا القرآن، ولعموم نفع هذا القرآن ولاشتماله على الحجج الدامغة ولاشتماله على الأخبار الصادقة التي يعرفونها هم في كتبهم، جاء بها هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ العنكبوت:٤٨ - ٤٩، فهذا الكتاب الذي جاء به هذا الذي لا يقرأ ولا يكتب دليل على صدقه -صلوات الله وسلامه عليه-، وكونه فصيح دليل على صدقه

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ النحل: ١٠٣، فكان في غاية الفصاحة وفي ذروة الفصاحة وفي قمة الفصاحة، فمن قرأه تأثر به سواءً في زمانه -عليه الصلاة والسلام- أو بعد وفاته ولحوقه بالرفيق الأعلى -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-، فتأثير هذا القرآن في قلوب من سمعه يشمل من حضره مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويشمل من جاء بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فلذلك كثر الأتباع، وقد حقق الله -تبارك وتعالى- ترجي النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا بأن كانت أمته أكثر الأمم، حقق الله هذا الرجاء «فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تبعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لأن أتباعه سبب إيمانهم به هو هذا القرآن العظيم وهو مستمر معجزة مستمرة خالدة؛ فلذلك كل من جاء بعده فقرأه وكتب الله له الهداية آمن به ونجاه الله -جل وعلا- من الهلاك، فكان -عليه الصلاة والسلام- أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة وأمته -صلى الله عليه وسلم- أكثر الأمم يوم القيامة، بل هم أكثر أهل الجنة، ثلثا أهل الجنة من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- مع أن أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- فيمن تقدمها من الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض؛ إذًا أمته من حيث العدد قليلة بالنسبة لبقية الأمم لكنها من حيث الفضل هي أكثر الأمم فضلًا ولذلك كانوا تبعًا لنبيهم -صلوات الله وسلامه عليه- لما كان أفضل الأنبياء كانت أمته أفضل الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١١٠، ولما كانوا كذلك استحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة، فكما جاء بهذه الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح مسلم من حديث أنس -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي

الْجَنَّةِ لَمْ» انظروا وأنا جئت به لأجل هذه اللفظة، قال: «لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ» الله أكبر! «فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تبعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» هنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ» ما في نبي صدق أكثر مما صدقت أنا، فلذلك كان أكثر الأنبياء تبعًا -صلوات الله وسلامه عليه- ثم قال: «وَإِنَّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ» شوف جاء بهذا وضرب مثلا بنفسه، من الأنبياء نبي لم يصدقه إلا رجل واحد، هل هذا دليل على أن النبي ما يعرف الدعوة؟ معاذ الله! ولكن هذا دليل على فساد المدعوين، الله -جل وعلا- قال عن إبراهيم: أيش؟ ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ العنكبوت:٢٦، يأتي النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرهيط، والنبي وليس معه أحد، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا أشد وأشد النبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، فهذا النبي آمن به واحد، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما صُدق نبي من الأنبياء أكثر منه، ولما كان كذلك فهو أكثر الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- تابعا يوم القيامة، وجاء في حديث ابن مسعود المتفق عليه في بعث النار، الحديث المشهور عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا، ثم قال ثلث أهل الجنة، قال ابن مسعود فكبرنا- رضي الله عنه- ثم قال -عليه الصلاة والسلام- أرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا -رضي الله تعالى عنهم- كما قال ابن مسعود: فكبرنا، ثم قال وما أنتم فيما سبقكم من الأمم إلا كالشعرة الحديث الذي ذكرناه قبل قليل، وإذا كان كذلك فهذا دليل على أن أمة النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين آمنوا به وصدقوه هم أكثر أتباع الأنبياء يوم القيامة، وإذا كانوا كذلك استحقوا أن يكرمهم الله -جل وعلا- بأن يكونوا أكثر أهل الجنة، فهنا انتهى

الأمر إلى النصف أنهم نصف أهل الجنة، وجاء في حديث بريدة -رضي الله تعالى عنه- عند الإمام أحمد بإسناد صحيح وعند الترمذي، والدارمي بإسناد حسن أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ» إذًا صار بهذا كم أهل الجنة؟ ثلثين من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، فهو من أكثر الأنبياء تابعًا إذ أهل الجنة الثلثان منهم من أتباعه -صلى الله عليه وسلم- والثلث لجميع الأمم، فانظر إلى هذا الفضل، وكيف حقق الله -جل وعلا- لنبينا -عليه الصلاة والسلام- ما ترجاه منه وما تمناه منه -سبحانه وتعالى-، وهذا دليل على فضل هذا الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعلى فضل معجزته على بقية المعجزات، وآيته التي تحدى بها على سائر الآيات، هذا الكتاب الذي فضلنا الله به يجب علينا إذًا أن نعتصم به، هذه مناسبة الحديث للكتاب لكتاب الاعتصام، هذا الكتاب الذي فضلنا الله به فجعلنا به أكثر أتباع الأنبياء، وجعلنا به أكثر أهل الجنة يجب أن نعتصم به ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران: ١٠١، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ آل عمران: ١٠٣، هذا القرآن العظيم فضلنا به فإذا تركناه تركنا الفضل الذي فضلنا الله -جل وعلا- به، وهذا الفضل الذي فضلنا الله به كل عاقل يطالب نفسه ويحاسبها وينظر ما موقفها منه، هل هي متمسكة به؟ قال -جل وعلا-: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾ الزخرف٤٣، فهذا الذي أوحي إليه -صلى الله عليه وسلم- وهكذا سنته -صلى الله عليه وسلم- وسيأتي معنا، فإذا كان هذا هو القرآن وهذه مكانته فوجب أن يعتصم به؛ لأنه هو الذي فضلنا به على سائر الأمم مع قلتنا وكثرة سائر الأمم، وهو الذي فضلنا الله به وجعلنا أكثر أهل الجنة مع أننا أقل الناس عددًا وغيرنا هم الكثير، فيجب على العاقل ألا يحيد على الاعتصام بهذا

الكتاب، وألا يتنازل عنه في حياته كلها سياسةً وأحكامًا وآدابًا وأخلاقًا هذا هو الاعتصام ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران: ١٠١، ولهذا هذه الأمة الآن ترون ضعفها في هذا الزمان بسبب الإعراض عن الاعتصام بالكتاب والسنة، بسبب النقص في هذا الجانب عند أهل الإسلام، وإلا لو تمسكنا بهذا القرآن كما يجب لرفعنا الله به كما رفع أسلافنا، إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين، فمن تمسك به رفعه الله ومن ابتغى العزة من غيره أذله الله -جل وعلا-، فما وصلت إليه الأمة الآن من الهوان والضعف والضعة إنما هو بسبب تركهم لهذا الكتاب العزيز، أو غفلتهم عنه، لذلك أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- لما كان تحت أسوار القسطنطينية، وصار ما صار من قتال المسلمين لهم وسبيهم لنسائهم بكى في هذا اليوم، هذا اليوم يوم نصر وعز للإسلام أنت تفرح وتستبشر وتضحك، لا هو بكى ووعظهم موعظة قصيرة لكنها بليغة قال: **"ما أهون الخلق على الله! إن هم ضيعوا أمره، بينما هم أمة ظاهرين على الأمم إذ سيرهم الله إلى ما ترون"** بسبب تضيعهم لأمر الله -جل وعلا-، فالواجب معشر الأحبة أن يعتصم بكتاب الله -جل وعلا- وبسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

المتن:

بَاب الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى اللَّهُ عليْهِ وَسَلَّمَ-، وقَوْلِ اللَّهِ -تعالى-: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤]

قَالَ أيمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعلَّمُوهَا ويَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ.

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَبَّاسٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، قَالَ: جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ فِي مَجْلِسِكَ هَذَا فَقَالَ: هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدَعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قُلْتُ: مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ: لِمَ؟ قُلْتُ: لَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبَاكَ، قَالَ: هُمَا الْمَرْءَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا.

الشرح:

هذا الباب: بَاب الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَوْلِ اللَّهِ -تَعَالَى-: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤]، قَالَ أَيمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ.

هذه كلها آثار جاء بها البخاري معلقة ثم أردفها بحديث عمرو بن عباس: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ، أبو شيبة هو: الحجمي وفِي هَذَا الْمَسْجِدِ المراد به: الكعبة المسجد الحرام وإن لم يرد له ذكر هنا، لكنه قد جاء مفسرًا في الموضع الآخر

-إن شاء الله سنبينه- فشيبة هو الحجمي، قَالَ: جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ فِي مَجْلِسِكَ هَذَا فَقَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدَعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قُلْتُ: مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ: لِمَ؟ قُلْتُ: لَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبَاكَ، يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبا بكر فقَالَ هُمَا الْمَرْءَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا.

والشاهد هو هنا: يُقْتَدَى بِهِمَا، قال: لَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبَاكَ يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبا بكر، والمراد بالمال هو: المال الذي بالكعبة، كنز الكعبة أراد عمر أن يقسمه بين المسلمين فلا يدع منه صفراء ولا بيضاء، يعني: لا ذهب ولا فضة إلا وقسمه في فقراء المسلمين، هذا دليل على أن المال كثير أن هذا الكنز كثير، ومع أنه في عهد عمر المال وفير وعهد أبي بكر وعهد النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن المال فيه وفيرًا، ومع ذلك لم يقسماه، النبي -صلى الله عليه وسلم- وعهد أبي بكر ما كان المال كما هو في عهد عمر -رضي الله عنه- ومع هذا لم يقسما مال الكعبة، كنز الكعبة، فلما همّ عمر قال له: لا يمكن أن تفعل ما أنت بفاعل قال له لماذا؟ قال: لأن صاحباك لم يفعلاه، النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر، فقال له هذه المقالة: فنعم من يُقتدى بهما، فهذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذا خليفته الصديق -رضي الله تعالى عنه-.

إذًا فلابد للإنسان حين عمله أن ينظر هل مقتدي أم مبتدئ ، أن ينظر هل هو مقتدي كما قال الله -جل وعلا-: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ الأنعام:٩٠، أو مبتدئ فيكون مبتدعًا لذلك قال السلف: **"نقتدي ولا نبتدئ"** يعني عليك بالاقتداء ودع عنك الابتداء يعني: احذر أن تفعل شيئًا ليس لك فيه سلف، هذا هو المراد وإذا كنت مقتديًا فأنت المعتصم بالكتاب وبالسنة، هذا الحديث كما سمعتم أولًا افتتحه البخاري بقول الله -جل وعلا-: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ الفرقان:٧٤، ولم يذكر القائل،

وإنما قال: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾ الفرقان:٧٤، قَالَ: أَيمَّةً، هذه قراءة صحيحة وأئمة بالهمز فيهما، وهذه قراءة صحيحة وهي لغة فصيحة يقال: أَيمَّةً بالياء، ويقال أئمة بالهمز في الموضعين، فقال قال: أَيمَّةً لم يذكر القائل، والقائل: هو مجاهد بن جبر -رحمه الله تعالى- أخرج ذلك عنه الطبري في تفسيره، وهكذا الفريابي بإسناد صحيح في فضائل القرآن بإسناد صحيح، كما خرجه أيضًا ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناد صحيح، والمراد: اجعلنا أئمة في التقوى حتى نأتم بمن قبلنا ويأتم بنا من بعدنا، وقد جاء عن قتادة -رضي الله عنه- بسند صحيح أنه قال: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾ الفرقان:٧٤، قال: أئمة يُقتدى بنا في الخير، فهذا هو الدعاء الذي ينبغي للإنسان أن يدعو به، "وإمامًا" مفرد مع أنه قال: واجعلنا جمع وناسب أن يُؤتى بالمفرد مع الجمع؛ لأن المفرد هنا جنس فيستوي فيه الواحد وما فوقه، فلا فرق بأن يكون الإنسان وهو واحد ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾ الفرقان:٧٤، وبين أن يقول للجماعة ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾ الفرقان:٧٤، فإمام اسم جنس يصلح للواحد ويصلح مع الجمع، فهذا معناه.

وأما ابن عون، حينما قال: وقال ابن عون فهو عبد الله بن عون بن أرطبان البصري -رحمه الله تعالى- من صغار التابعين، وكلامه هذا هنا الذي جاء به المصنف قد وصله الحافظ ابن حجر في "تغليق التعليق" في المجلد الخامس، والتعليق عندكم عليه وموجود ساقه بالأسانيد -رحمه الله تعالى- ووصله الحافظ من طرق من تقدمه من أصحاب المصنفات، ومن أشهر من وصل من أصحاب المصنفات الأُول أئمة السنة الذين صنفوا في الاعتقاد، فمن هؤلاء محمد بن نصر المروزي فإنه قد خرجه في كتاب "السنة" وهكذا خرجه الإمام أبي القاسم الطبري اللالكائي فقد خرجه في

كتاب "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" فساقه فيه وذلك لمناسبة الاعتصام بالسنة وترك البدعة، هذا وجهه فدخل في كتاب" السنة" للالكائي الذي هو في سنن العقائد ضد البدع والمحدثات، كلامه موصول عنده.

وقوله -رحمه الله تعالى-: وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِنَفْسِي وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ، بدأ بالسنة يَتَعَلَّمُوهَا هذا هو المناسب في الأثر لم؟ للباب، الاقتداء بالسنن والاقتداء بالسنن هو اعتصام بها فهو المناسب لكتاب الاعتصام، فقوله: هَذِهِ السُّنَّةُ يَتَعَلَّمُوهَا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وجاء هذا عنه بلفظ آخر هذا الأثر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيتبعه ويعمل بما فيه ومن هنا أخذ أهل الحديث إطلاق الأثر على أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان الأولون يسمون الحديث أثرًا فاللفظ الآخر "هَذَا الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم-" فقوله: "هَذَا الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ" دليل على تسميتهم للمرفوع الذي هو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تسميته أثرًا، وقوله: "وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ" هكذا النص عندنا، وجاء في طريق أُخرى: "وَالْقُرْآنُ فَيَتَدَبَّرُوهُ"، فَيَتَدَبَّرُوهُ بدل يَتَفَهَّمُوهُ، وهو المراد، فإن التدبر: هو التفهُّم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ ص: ٢٩، فالتدبر هو التفهُّم، فجاء بدله باللفظ وهناك بالمعنى، وقوله أيضًا عنه: "هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ" هذه هي الثانية "وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ" هذه هي الثلاث التي أحبها ابن عون لنفسه يعني: تعلُّم القرآن وتفهُّمه وتدبره، تعلُّم السنة وروايتها والتفقه فيها، وأن يشتغل بنفسه، يدع الناس إلا من خير، المراد: أن يكُّف شره عن الناس، فإن قوله: "إِلَّا مِنْ خَيْرٍ" معناه: أن يأتيَهم بالذي ينتفعون به

ويكف أذاه عن الناس، فهذا معناه، وليس معناه أنه لا يخالط الناس أبدًا، لا، يترك شره ويحجب شره عن الناس ويوصل إليهم خيره، فهذا معناه، وقد جاء في بعض الطرق هذا النص وفيه: "وَرَجُلٌ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَهَا عَنِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ"، "رَجُلٌ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ" يعني: يستصلحها "وَلَهَا عَنِ النَّاسِ" يعني: اشتغل عنهم وتركهم "إِلَّا مِنْ خَيْرٍ" فيوصل الخير إليهم، هذا هو المطلوب، فإن الْمُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، فإما أن يوصل إليهم الخير، فإن لم يستطع وليس عنده قدرة في هذا، فلا أقل من أن يكف عنهم شره يلهى عنهم ويعتزل ولا ينالهم من شره شيء، فحينئذٍ يكون على خير، والمرء إذا لم يجد ما يتصدق به حتى في باب بالصدقة كفَّ لسانه عن الناس «فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فالشاهد أيضًا قوله: "وَلَهَا عَنِ النَّاسِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ" يعني: الشر ما يأتيهم منه وإنما يأتيهم منه الخير.

وقوله في القرآن: "يَتَفَقَّهُوهُ"، وقوله في السنة: "يَتَعَلَّمُوهَا" فالسنة تحتاج إلى تعلُّم والقرآن يحتاج إلى تفهُّم، لم؟ ذلك؛ لأن القرآن:

أولًا: هو محفوظ.

وثانيًا: تعلُّمه بحفظه وقراءته، أول مراتبه: القراءة، والحفظ، وهذا حتى صغار أبناء المسلمين في الكتاتيب؛ فلذلك قال: "يَتَفَقَّهُوهُ" فهو محفوظ يتعلمه الصغير بمعنى: يعلم القراءة، يعرف القراءة، لكن الفهم ما هو كل واحد، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الخوارج: «يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ» يقرءون القراءة هكذا بدون فهم «يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ» فهم قرءُوه، تعلموه لكنهم ما تدبروه ما فهموه، تعلموا القراءة، تعلموا أحكام

التلاوة، تعلموا، تعلموا، لكن الفهم ما تفهَّموه، فالقرآن محفوظ يتعلمه حتى الصغير بمعنى: يقرؤه، فلا يتعبون في معرفة الصحيح والضعيف كما هو في الحديث، كله محفوظ منقول إلينا نقلًا متواترًا من الجلد إلى الجلد فيحتاج إلى أن يتفهَّم فيه، فمن فاته الفهم فقد فاته الخير كله، ولهذا قال: «فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» العلم بالتأويل هو الفهم، هذا هو الفقه «مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُ فِي الدِّينِ» قال -جل وعلا-: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ الأنبياء:٧٩، القرآن علم موجود في القراءة يقرؤه الناس، يتعلمون قراءته، لكن الفهم، ما يفهمه إلا القليل، فلذلك قال في القرآن: "يَتَفَهَّمُوهُ" وفي السنة: "يَتَعَلَّمُوهَا" فإن تعلُّم السنة أوسع، يحتاج أولًا إلى أن يعرف الطرائق التي تَثبت بها الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صحةً وضعفًا، يُنفى بهذه الأسباب ويُنفى بهذه الشروط ويُنفى بهذه القواعد ما لا يصح نسبته إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويُثبَت بهذه الأسباب، ويُثبَت بهذه الشروط، ويُثبَت بهذه القواعد ما تصح نسبته إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهو يحتاج إلى أن يتعلمها ويعرف كيف تثبُت هذه السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا تعلم بعد ذلك يتفهم، فالغالب أن المسلم يتعلم القرآن في أول أمره وذلك لما ذكرناه، فلا يحتاج لوصية بتعلمه فلهذا أوصى بتفهم معناه، ولذلك الصغار يحتاجون إلى أن يتعلموا القرآن يحفظونه، أما التفهُّم بعدين يأتي بعد ذلك إذا كبروا وتقدموا، وفهموا الخطاب وفهموا معنى اللغة حينئذٍ يُفهَّمون، لكن في الفترة الأولى في صغر السن هو ما يفهم هذه المعاني، عقله يقصُر عنها فيحتاج إلى أن يتعلم، فتعلُّمه في الصغر حاصل، ولمن أسلم في أول إسلامه حاصل يقرأ القرآن، لكن إذا تقدم هذا في الإسلام وتقدم هذا في السن احتاج إلى أن يتفهَّم؛ وهذه هي

الثمرة من القرآن هي: التفهُّم، أما السنة فلا، فإن السنة تحتاج إلى جهد حتى يصل الإنسان إلى الإثبات لهذا الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا ثبت يأتي بعد ذلك التفهُّم والتدبر فيها والتأمل لما فيها من الأحكام التي جاءت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ولعلنا نقف ونواصل بعد الصلاة، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد.

وللاستماع إلى الدروس المباشرة والمسجلة والمزيد من الصوتيات يُرجى زيارة موقع ميراث الأنبياء على الرابط

miraath.net

وجزاكم الله خيرا.